... إلى مدينة النصر

بقلم محمود تيمور

لست اعنى مدينة « بورسعيد » ، مدينة النصر فى يومنا الحاضر ، ولكنى اعنى نظيرتها فى الامس غير القريب .

وسواء اسميناها « مدينة النصر » ، ام قلنا « مدينة المصورة » ، فان حروف اسمها تحمل معنى الصور والكتب والعلم ، معنى الانتصار .

انى لاحس ، وانا اتامل هذا الاسم ان ضوءا ساطعا ينبعث منه ، لا يخبو على الايام . انه ضوء التاريخ الذى اوقده الاهلون من سكان تلك البقعة الطيبة فى مواقعهم المجيدة مع الغيرين الدخلاء .

نحن فى زيارة لمدينة النصر ... مدينة السؤدد والعزة والكرامة ، نقصد اليها مستجيبين لدعوة كريمة وجهها الينا نخبة من الاصدقاء الاحرار ، لمشاركتهم الاحتفاء بذكرى رميل من اعلام الفكر والراى والتجديد ، حمل لواء العلم ، متقدما به الصفوف ، وبشر بمذاهب عصرية فى نظم الحكم والاجتماع ، وكسب فى النهاية نصرا مؤزرا فى ميادين الثقافة الاصيلة المستيرة من حضارة واستحقاق .

سافرنا لنحتفل فى مدينة النصر بنصر آخر فى ميدان المعرفة الانسانية ، يباري كتب المعارك فى حومة الجهاد الوطنى .

سنشارك فى احياء ذكرى الاستاذ « اسماعيل مظهر » المؤلف والمترجم والباحث والاديب .

واحتوتنا السيارة ، رفقة ممن كانت لهم بصاحب الذكرى صلة رصالة ، وآصرة مودة ، وجعلت تطوى بنا رصيف النيل من شاطىء « الجزيرة » بالقاهرة ، مخلفين وراءنا جسر ٢٣ يوليو الذى لم يعد يحمل من مظاهر التجديد والانبعاث الا رقم التاريخ الذى ارتبطت به فى عهدنا الحاضر حركة التجديد والانبعاث .

ما أخرانا أن نلقب هذا الجسر ، جسر ما قبل التاريخ ... اكاد اتمثله ملقيا بهيكله المضعضع على النهر ، كانه « دينا صور » هائل من فصيلة الحيوانات المنقرضة ، قد جف دمه ،

تناثر عنه اللحم والجلد ، ولم تبق منه الا اضلع من عظام نحرة ، يوشك ان يدركها التفتت والبلى .

مالنا ولهذا ، الدنيا صور ، الهرم ، وأمام أعيننا يتخطى على الرصيف اشراق التطور والتحضر ... هذه « شبرا » الجميلة ، مستعمرة بساحاتها الرحبة ، وبمصرها الذى عمرته كلية الزراعة ، ودنما قام على حفاف المزارع من أبنيه شعبية ، ومن مستشفيات للملاح .

ثم هلت علينا « محطة شبرا » ، وكدت أكذب عينى ... أهذه حقا محطة شبرا التى كنا نلقاها فى دواكير صبانا محورا تستعطاء كأنها ساحرة من ساحرات قصص الاطفال ! لقد احلت مكانها مبنى رشيق ، ما اشبهه بعمارة عصرية تتألق صورتها على غلاف مجلة تقدم للقراء احدث مبتكرات الاذكياء !

واقبلنا على « قليوب » ... وقد زحف عليها التقدم الصناعى ، فاحال جانبا منها الى مصانع ومؤسسات وابنية شاهقة للسكنى .

وتابعنا المسير فى الطريق السريع ، فأثارت انتباهى ظاهرتان : الاولى نشاط التشجير ، والأخرى قيام محطات انتظار لركاب السيارات العامة ، وفى هذه وتلك ما ينفى الوحشة والملل من الطرق الطويلة ، ويبعث فيها الحيوية والايناس .

وكانت الحقول الخضر تحيط بنا على مرمى البصر ، تنعم بمرآها البهيج ، واذا الدليل يربع عقيرته صائحا :

نحن مقبلون على « سنديون » ... فكونوا على حذر !

ورميت اليه ببصرى استطلع ، فواجهنى محياه الجهم ، وهو يواصل قوله بنظرات حداد .

أتسيتم امرها ؟ انها « شيكاغو ، مصر » ، أو « دالاس » العالم العربى ... كما يقال ! ... لقد احتلط باهلها نفر من قطاع الطرق ، فاشاعوا حولها ما اشاعوا من ذعر واضطراب .

ولم يكد يفرغ من قوله ، حتى كنا امام محطة « سنديون » ، وهى مشيدة على طراز امريكى محدث ، فكأنها اقتلعت بجذورها من مكانها فى جنوب « امريكا » وغرست هنا فى مقرها الجديد ، حاملة معها روح موطنها الاول روح الغلو والجراة والاقتحام !

لسنا ندرى حقيقة ما يشاع ، ولكن الشائعات على كل حال مادة للتسلية ، ومثار للتفكه ، ولا بأس على أهل « سنديون » مما يعانيهم به أهل الترثرة والفضول !

وتوارت خيال اطوارنا الجسور الجدد ، فاقره او عابثه ، وهى من ثمرات الحضارة الصناعية الآلية : تضفى على فتنة الطبيعة سحر العصر الحديث .

وبدت اقفاص الرتقال ترحم أطراف الطريق ، وبائعاته الحسان يتسابقن فى عرض تلك الثمار الذهبية التى تفوح منها أريج زكى ، وترامت على الجانبين بساتين زاهرة تخلب الأنظار برونقها البهى .

واخترقنا منطقة « منشهر » ، حيث يرهو معهدها الزراعى ، أول معهد للزراعة عرفه الريف ، وكانت

مطعم الانهار والجواميس تربع ش المراعي ، وهي تبعث الينا شيرات بشر وترحيب .

وتراءت لنا « نهيا » ، أو بالأحرى « بنها العسل » ، وسرعان ما انحرف بنا الطريق عنها ، فلم نجد للعسل مذاقا ، ولا شممنا له نسمة ... والطريق الذي مضت فيه السيارة هو طريق «ميت غمر » المحاذي « لبحر شبين » ، وانه لبحر شاعري ، يذكي الخيال ، ويفسح له مجال انطلاق ، وان ضفتيه لتزخران بالعدد اللاح اللواتي يرتدنه ، ويلخص ماءه الصحصاح ، ليملأن منه جرارهن ، كاشعات عن سيقان بضة تلوح تحت الشفوف ، وان كن ملثمات الوجوه ، فكأنهن اخيلة رقاقة من عالم الرؤى والاحلام ...

وعض الطريق بثمر الرتقال . ونحن مقبلون على « كفر شكر » ، وما اولاه بان يدعى « كفر البرتقال » ! وكانت تصافح انوفنا ابراح الحمام ، عالية الهامات بقدودها الهيفاء .

ولما بدت لنا « طماما » مال على الدليل يقول :

ان ما اصابته « طماما » من شهرة وبعد صيت يعود الى امرين هامين الاول انها موطن « دمياته » بطلة قصة « ابن طولون » التي كتبها « جورجي زيدان » منذ عشرات السنين . ومن العجيب ان تعدو « دمياتة » — وهي بطلة حب ومغامرة — قريبة لها في قلوب اخواننا الاقباط كل اجلال وتقدير ، وان لها لصورا تتداولها الناس بيعا وشراء كمريم البتول ... والامر الآخر ان « طماما » تعنى بتربية العجول عناية ظاهرة . فهي سوق لبيع اللحوم وتصديرها الى مناطق شتى .

وما ان اتم دليلنا قوله ، حتى مر بنا على جانبي الطريق صفان من العجول الذبيحة المعلقة في حوانيت ربيعة من حوانيت القواء الطلق ... اعلانا حيا للشهرة الصافية التي احرزتها البلدة في ميدان الذبح والسلخ !

وجرينا بارض المذبحة ، وطالعنا شبح عجل يتوثب حول امه ، وملء اوصاله فرحة ونشوة ومراح ، فتأملته مليا والحسرة في جوانحي : انه يجهل ما يخبئه له القدر من مفاجآت . يلهو الساعة مطمئنا في حمى امه الرءوم ، فاذا آب من حولته انقضت عليه سكين الجلاد ، فهوى متخبطا في دمه ، وامه تنظر اليه كأنه يلعب حولها ، بيد انه يلعب في هذه المرة لعبته الاخيرة ، يقوم بعرضها على مسرح الوجود ، وهو يؤدي له حق الوداع . . ليس ثمة من حديد ايتها الأم الثكلى ، كلنا مثل انك الذبيح ، نحيا لاهين مستبشرين بالحياة ، والقدر ما نرصد ، وكم اهوى بسكينه الماحية على رقابنا ، ونحن في غفلة ساهون ، فنتساقط كما تتساقط هذه المواليد الصغار في عالم الحيوان !

وكان « بحر شبين » لا يزال يصاحبنا ، وهو تارة يهمر ويهدر ، وطورا يتضخم ويتسع ، وقوارب النعدية العراض لا تكف عن الحركة على متن الماء .

ورأينا على البعد « ميت غمر » بمصنعها الضخم الجديد ! مصنع النسيج ، والعيش على الفور اردد دون وعي :

سائلوا الليل فهمو والنهارا
كيف باتت تساؤهم والعذارى

كيف اضحى وليدهم فقد الأم
وكيف اصطلى مع القوم نارا

بيتان من قصيدة لشاعر النيل « حافظ ابراهيم » سجل بهما حريق المدينة منذ عشرات الأعوام ، فجعلت اسائل نفسي : ايهما اعظم وابقى ؟ قصيدة « حافظ » أم مدينة « مبت عمر » ؟ ... سؤال اطرحه على سمع الزمان ، والجواب الصائب في ضمير الغيب ، سوف يعرفه اخلافنا من اجيال الغد البعيد !

وظهرت مشارف « المنصورة » حافلة بالوحدات الصحية ودور الحضانة ومصانع الخشب الحديثة ومعمل اللبن المبستر ، وما الى ذلك من المنشآت العامة ... وثمة حديقة فياحة ذات أفنان واثاهير عناية في التنسيق والابداع ، تحتضن ابنية رشيقة كأنها بيوت صغار محدودة تعلوها قباب ، فهممت أقول :

ما اسعد سكان هذه المثابة الجديدة، انها حقا مدينة الأحلام !

فهمس الدليل في أذني :

انها ليست مدينة الاحلام ، بل مدينة الحقيقة الكبرى ... مدينة الموت ... هذه مقابر لاحدى طوائف المسيحية .

فاجئته ، وعيني عالقة بتلك المثابة :

ان من بين الموتى لمن ينعم بمرقد دثير حري بهفو الى مثله الاحياء !

وتلفتنا بقعة وصفها الدليل بأنها «بوابة المنصورة» ، فاذا هي ذات سحنة طحنتها السنون ، واذا هي عارية في أوهام الماضي واوضاعه ، غريبة عن قرى العصور الوسطى مازالت سوقها الاثرية قائمة ، كأنها متحف لا يحوي الا اطلال آثار .

وما كان اشد عجبي حين سمعت من الدليل ان هذه هي « سندوب » ، فلقد طالما اقترن هذا الاسم عندي بنخبة من اعلام الفكر والادب في ذخائر كتب العرب ، اذ كان صديقنا القديم الاستاذ « حسن السندوبي » يشر فيما ينشر باسم « الخاطف » وشعر «المراقصة» وما الى ذلك من نفائس الادب ، فعظم في خيالي اسم الموطن الذي ينسب اليه اديبنا المحقق ، وصدق المثل : سماعك بالمعيدي ـ او بموطن السندوبي ـ خير من ان تراه !

وجاوزنا البلدة مسرعين ، فاجتزنا « الشارع الصاعي » مدخل «المنصورة» الاصيل ، وانه لحي شعبي صميم ، فيه مشابه من منطقة «الحسين» و «السكة الجديدة» بالقاهرة ... وواصلنا السير ، وظلمة الليل تتسلل رويدا ، فاثرت لها سهام النور تبدد حواشيها الثقال .

وبلغنا الفندق ، فأمضينا فيه قليلا من الوقت ، وخرجنا الى « جمعية الشبان المسلمين » ، بيت القصيد في هذه الزيارة ... دار عامرة ، وحشد من العلماء والادباء ، جمعت بينهم فضيلة الوفاء لمن أسدى الى العلم والأدب يدا بيضاء . وشد ما كان الذين مأثرا للفضائل ومكارم الأخلاق ، وشد ما كان داعيا الى العلم والتفكير في ملكوت الله .

وفي بكرة الصباح طوفنا بالمدينة ، تستطلع وتتعرف ، رصيف ممدود على النيل ، حافل بالمارة والاندية ، يواريه على الشاطئ الآخر نظير له في بلدة « طلخا » ، وكلاهما يتناعسان في مجال البصر ، وهما يتوامئان بجسرين عظيمين ، وما أشبه البلدين يتوامين بربطهما هذان الجسران ، كأنهما شريانان يتبادلان بهما حركة الحياة ، ولا يملكان الفكاك .

والمنشآت العمرانية في « المنصورة » تنمو سراعا في ثروة وحيوية ، الجامعة تتحلق ، والسوق العظيمة على وشك أن تستقبل المتاجر والرواد ، وقصر الثقافة يتمالى صرحه على الشاطئ ، الى غير ذلك مما يشعر بالاستجابة لروح التطور في المجتمع الناء .

وكنا ، ونحن نجوب المدينة ، نحس الذكريات المجيدة ترافقنا في كل خطوة نخطوها ، أنت مع « الصالح أيوب » و « الملك الكامل » و « شجرة الدر » و « ابن لقمان » وغيرهم من شخصيات التاريخ الوضيء لهذا البلد الطيب ، فالشوارع والمؤسسات والمعاهد والمساجد والاسواق تنطق بأسماء هؤلاء الابطال العابرين الاحياء !

وحين حسبت أنا بلغنا غاية الشوط ، قلت للدليل :

آن لنا أن نرجع .

فالتمعت نظراته قائلا :

بقي الأهم من كل ما شهدت ... ألا تزور « ابن لقمان » ؟

فقلت : بلى الها ...

ووصلنا .. وأول ما استقبلنا « مسجد موافي » ، وهو مبنى له خطره في عالم الآثار ، الا أنه يدين بشهرته الكبرى لدار « ابن لقمان » ، مهما يلاصقها ، وكأنه بابها ، أو كأنه لسانها الناطق ، وصوتها الجهير ، يعلن في مواقيت الصلوات الخمس من كل يوم نداء التاريخ الخالد :

الله اكبر ... هنيئا قضى الملك « لويس التاسع » فترة اسره ، بعد ان دحر المصريون جيشه ، وهو يحاول الغزو والعدوان ، في منتصف القرن السابع الهجري ... الله اكبر !

واتجهنا الى الدار النبيلة العظيمة ... يالله ! ... كم من مظهر ضئيل تكاد تقتحمه العيون ، له من اصالة المخبر ، ونفاسة الجوهر ، ما يمنحه سر الخلود ... تلك دار متواضعة بالغة التواضع ، في صدرها بوابة متظامنة عليها طابع الدعة والسذاجة ، وعلى جبهتها لوح رخامي خط فيه تعريف وجيز بالدار .

ودخلناها .. تشيع في نفوسنا منها فرحة النصر ، ونحس لخطانا على ارضها حق الطول ... وكأننا نتابع زحف الحفائر من ابطال المدينة في عصر المعركة ... انا نسير في ركاب الموكب التاريخي ، نهتف للسلف المجيد هتاف الاعزاز والاعتداد بما نال من ظفر ، واذا كنا قد حرمنا ان يكون لنا فضل المشاركة في ذلك الجهاد الوطني ، فلا يفوتنا اليوم أن نستحضر في اذهاننا ركب التاريخ ، مشدين بذكراه ، سائرين على هداه ، ونحن نواصل

الكفاح من أجل وطنها الغالي ، لتكتب له النصر تلو النصر في عهدنا الجديد ..

وهبطنا الدرج ، فاذا نحن في ممر صغير ، تحلي جدرانه يد تنقل اليك لمحات من صفحات التاريخ في وصف الحملة الغاشمة على المدينة ، وصور تذكارية لافتتاح الرئيس « جمال عبد الناصر » للدار ، ولا غرو أن نرى خالد الانتصار على العدوان الجديد في مدينة « بورسعيد » يحيي ذكريات الانتصار على العدوان القديم في مدينة المنصورة » .

وانتقلنا الى صحن الدار ، فأسلمنا الى غرفة علوية تزينها شرفة ، تقع تحتها حجرة أشبه بحاصل للذوات ، في الغرفة العليا جلس « لويس التاسع » وفي الحجرة السفلى جلست حاشيته واحراسه .

وخرجنا الى قاعة فسيحة يسبح فيها ضوء النهار ، هي معرض حافل بذخائر فنية مصرية أو قديمة ، متصلة أونق اتصال بالغزو والانتصار .. وهذا المعرض يتحدث اليك بلغة الرسوم المجسمة ، والتماثيل والألواح والمخلفات ، حديثا شافيا يتنبك عن دروس مطولة وحولات بعيدة فيما كتب الباحثون والمؤرخون .

وهنالك تطالعك رسائل تولدت من العراء الدخلاء وحماة الوطن الأبطال ، فكانك تعصها بنفسك ، وتكشف فيها عما اختلجت به رءوس المعتدين من خلف ومنجهيه وكبرياء ، وما عمرت قلوب الحماة المدافعين من عزه وكرامة وإباء .

وتنقل بصرك بين الرسوم والتماثيل والألواح والمخلفات ، فيقرع سمعك صوت البحر ، وصليل السيوف ، وصهيل الخيل ، وهرير الأنفاس ، وتمثل نفسك على مرقبة من المعارك الطاحنة ، تشهدها بين جزر ومد ، واقتحام وانهزام ، ولا تلبث أن تحوض غمارها ، شاهرا سيفك ، مرخصا في سبيل الوطن حياتك ، ثم تحدك بين جنود الأبطال المنتصرين يسوقون الملك المعتدي أسيرا في موكب المهانة والاذلال ، ينتهي به المطاف الى المحبس ليقضي فيه ما كتب له من أيام ، وترى من بعد ذلك جمعا من الرسل أقبلوا على قاضي القضاة ، يستنقذون ملكهم بما فرض عليهم من فدية ، وهم يجرون أذيال الخزي والعار .

وتأهبنا لمغادرة دار النصر ، في مدينة النصر ... وقد أحاطت بنا أطياف نورانية ، من آفاق التاريخ البعيد ، كأنها تحرس المدينة الخالدة ، وتبارك وحدتها مع الوطن كله في الحاضر المشرق المشهود ، وتحيي تطلعها الى الغد الباهر المنشود .